• أماني حمد

البردوني في "أبو تمام وعروبة اليوم".. بين الحداثة وشاعرية التأويل

مقدمة

ما أكثر تلك الأعمال الأدبية التي انتقلت من حيّز القضايا الفردية إلى فضاء القضايا الجمعية، ومن الهموم الشخصية إلى الهموم المجتمعية. فالأدب يحاكي الواقع ويصوره حاذفاً ومضيفاً، مغيراً ومتخيلاً، ولكنه يبقى ملامساً لهمومنا وقضايانا نقداً وشرحاً وتقديماً وتعليلاً، ودعوة للتغيير، فالأدب نبض الشارع وصوته.

الشاعر الحق هو من استطاع أن يدغدغ مشاعر المتلقين، ويجتاح نفوسهم، ويقتحم عوالمهم، ويحاكي أفكارهم، ويستقر في أدمغتهم، ويلامس أحلامهم، وهو بلغته سيد تلك الأحلام، ونتاجه وريثها.

والقصائد التي عبرت عن نبض الشارع كثيرة، والأعمال الأدبية غزيرة، ومن تلك القصائد التي عبرت عن هموم العرب عامة، واليمن خاصة، قصيدة "أبو تمام وعروبة اليوم" للشاعر اليمني عبد الله البردوني، وهي محور هذه الدراسة.

الأدب الخالد ما حاكى الواقع وشرحه ونقده وعلله وفسره وقدم الحلول، وعدا ذلك فهو أدب آيل إلى الاندثار والسقوط، ولم يكتب له الخلود.

حاولت هذه الدراسة أن تقدم قراءة نقدية تحليلية لقصيدة "أبو تمام وعروبة اليوم"، وعرجت بعجالة للتعريف بالشاعر، ثم وقفت على عتبة العنوان، وبعد ذلك ولوج القصيدة والتي جاءت على شطرين، الأول يحاكي الواقع العربي والهمّ الجمعيّ بعامة، والآخر خاص باليمن.

تناول الجزء الأول حال الأمة العربية المحزن المبكي، وطبيعة حكام اليوم وولاءهم للأعداء ومقارنتهم بالمعتصم، متطرقاً إلى تاريخ العرب العملاق والماضي المجيد، أمام حضارة الغرب الزائفة، ثم التأسف على أفول الأصل العربي وعزهم التليد.

وتناول القسم الثاني مأساة العربي في وطنه، وهمومه وتوقه إلى الحرية الخالصة، فهي جوهر الإنسان، ومن ثم أسباب بكائه وأسئلة أبي تمام. وأخيراً، عاد به الأمل حتى لو كان خافتاً باهتاً، إلا أنه باق ويتجدد.

والقصيدة من بدايتها، ولا سيما عنوانها، حملت موازنة ما بين عصر أبي تمام وعصر الشاعر، وما بين حكام اليوم والمعتصم.

صحيح أن التاريخ يعيد نفسه، لكن الذي ضاع هو العربي الأصيل؛ فقد حضرت الفرس وغاب الفارس، حضر السيف وغاب الثائر الصادق الغاضب، وشتان ما بين انتصارات العرب وفتوحاتهم قديماً وما بين نكباتهم وهزائمهم اليوم، أين ذهبت النخوة العربية؟ والدم العربي؟ والسيوف العربية؟

ثم عرجت الدراسة على أهم السمات الفنية في لغة البردوني، وأهمها تقنيتا السرد والتناص بأنواعه الأدبي والتاريخي والأسطوري.

حملت القصيدة شكلاً تقليدياً، ولكن مضمونها حمل هماً عربياً معاصراً متكئاً على ألفاظ عصرية ومفردات حداثية، بنظرة مستقبلية تنبؤية تنمّ عن قدرة الشاعر على قراءة المستقبل. واتبعت في هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي. ويجدر بنا قبل الخوض في غمار القصيدة، الوقوف على حياة الشاعر ومحطاتها.

عبد الله البردوني

هو شاعر يمني معاصر، مفكر وناقد ومحلل سياسي، ولد في مدينة بردون، فقد بصره وهو في الخامسة من عمره بسبب إصابته بمرض الجدري الذي سلبه بصره، فمضى متصالحاً مع فقده البصر، اعتاد عليه، وتعايش معه، واقتحم الإبداع برؤياه وبصيرته، لا برؤيته وبصره، واكتشف المجهول بإبداعه، بل تجلى في ذلك.

هو شاعر التفاصيل، استثمر طاقات اللغة وأتقن فن التعامل معها مشكّلاً منها خطاباً شعرياً منفتحاً على تقنيات متعددة، كالصور البصرية والسمعية، أضف إلى ذلك قدرته على استنطاق الصامت وإسكات الناطق، ولا غرابة في ذلك؛ إذ نجده يركز على تكثيف الأداء السمعي مع غياب بصره.

إذن، نجد المعجم السمعي حاضراً وبقوة في معظم نصوصه، وهو من أهم الأدوات التي وظفها في نصوصه وشكلت عالمه الأدبي.

يعد عبد الله البردوني شاعراً إحداثياً؛ فهو من رواد الشعر الحداثي، ولكنه في الوقت نفسه حافظ على الشكل الكلا سيكي للشعر المتمثل في عموديته، أي أنه بذكاء وحذق وفطنة حافظ على الشكل التقليدي

للشعر، إلا أنه غير في الأفكار والمضامين بما يتناسب مع الواقع المعاصر.

عبد الله البردوني "معرّي اليمن"

يعدّ البردوني معري اليمن والرائي البصير. وعلى الرغم من رفضه مقارنته بالمعري تواضعاً، فهو حقاً يشبه المعري؛ إن كان المعري رهين المحبسين فالبردوني رهين أكثر من محبس، صحيح أنهما يشتركان بالعمى والانعزال عن الناس، ولكن المعري كان أعمى في عالم مبصر ومنفتح يعج بالثقافات، أما البردوني فعاش أعمى في محيط أعمى؛ فعانى من الحبس الثقافي حين قام الإمام يحيى حميد الدين بعزل اليمن عن كل الثقافات زمن الإمامة المتوكلية، في حين كان المعري محظوظاً بازدهار الدولة العباسية التي يستظل بظلها وينهل من بحورها الثقافية.

كان الحبس السياسي عادة حين اعتقل أحمد بن يحيى الشاعر البردوني بسبب هجائه للأئمة، فلم يكن مبالياً بهم ولا بجبروتهم، في قوله:

هدّني السجن وأدمى القيد ساقي فتعاييت بجرحي ووثاقي

وأضعت الخطو في شوك الدجى والعمى والقيد والجرح رفاقي

جرحي الدامي ومكثي وانطلاقي ومللت الجرح حتّى ملّني

كلّ سفاح، وعطر الجرح باقي سوف يفنى كلّ قيد وقوى

لذا، بات البردوني رهين أربعة محابس: العمى، والغربة، والحبس السياسي، والحبس الثقافي.

شخصية البردوني ثورية جريئة، فهو صاحب رفضين: رفض الاستسلام لواقعه الذاتي الشخصي المتمثل بالعمى، ورفض واقع اليمن والظلم السائد والحال السياسي. نراه متمسكاً بمبادئه، ثائراً متمرداً متحدياً القيود كلها، يختار الطريق الأصعب، ينشد الحرية المستديمة والوجود الخالص متطلعاً إلى الانعتاق.

تجدر الإشارة إلى أن الشاعر قد ألقى قصيدته هذه في "مهرجان أبي تمام الشعري" في الموصل في العراق سنة 1971م، وحصل على جائزة "إمارة الأدب والثقافة والشعر العربي". وتنتمي القصيدة إلى ديوانه "لعيني أم بلقيس"، وكانت السبب في شهرته حتى حصلت على جائزة المهرجان وإعجاب الحضور وتصفيقه المطول

وذهوله الشديد، الجمهور الذي لم يتوقع أن يسمع كلاماً كهذا من شاعر ضرير، مطلقين عليه حكمهم لمظهره وسوء هيئته، فآثار الجدري حفرت في وجهه، وكان يمسح أنفه بكم معطفه.

عتبة العنوان

استدعى الشاعر في القسم الأول من العنوان شخصية أدبية معروفة، وهي شخصية (أبي تمام)، وفي المقطع الثاني كلمة (عروبة) مقترنة مع ظرف زمان (اليوم).

فالعنوان إذن يحمل تجاوراً نصياً تناصياً مع قصيدة أبي تمام "فتح عمورية" التي مطلعها:

السيف أصدق إنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونهن جلاء الشك والريب

ويحمل موازنة ما بين العرب قديماً وحديثاً، من خلال استحضاره شخصية تاريخية أدبية قديمة شاهدة على تاريخ العرب وأصالة العروبة قديماً، وما هي عليه حال العروبة بذكره ظرف الزمان (اليوم). وعليه، فقد اختزل العنوان حقبتين زمنيتين مختلفتين؛ تمثل الأولى زمن أبي تمام والمعتصم وفتح عمورية، أما الثانية فتمثل عهد البردوني الحديث، ثم عقد موازنة بينهما.

لذا، نؤسس في هذه المباحثة لثنائية الحضور في الزمن الماضي (عز العرب وأمجادهم)، والغياب في الوقت الحاضر(المذلة والهوان) من خلال استحضار الشاعر للموروث.

أبو تمام / عروبة اليوم

عهد أبي تمام عهد البردوني

عروبة أصيلة فتوحات وفتوحات عزّ وأمجاد عروبة باهتة هزائم متتالية مذلّة وهوان

يحلينا الرسم السابق إلى موازنة واضحة، ومفارقة بائنة ما بين عهدين أو زمنيين، زمن أبي تمام وعزّ العرب التليد وأمجادهم السابقة، وما بين عهد الشاعر والعروبة الباهتة.

وتقسم القصيدة إلى قسمين، تحدث الأول عن الهمّ العربي بعامة ليواكب المناسبة كونه في العراق، وللعراق بعد قومي حينذاك، فلا بد من البدء بالهموم العربية العامة، وهو نص منبري خطابي. أما القسم الثاني فهو النص السامي العميق، الذي تحدث به عن الهم اليمني الخاص.

قراءة القصيدة/ القسم الأول: الهمّ العربيّ الجمعيّ العام

بدأ البردوني قصيدة مجارياً قصيدة أبي تمام في "فتح عمورية"، مغيراً في الألفاظ ولاعباً في المعاني، حاملاً على عاتقه سياسة الرفض والتمرد على الواقع المعاش، هازئاً بعروبة اليوم الباهتة، متحسراً على عروبة زاهرة كانت في زمن غابر، عبر سيل من الألفاظ والمعاني التي تدخل المتلقي مباشرة في عقد موازنة بين عروبة عهد البردوني، وعروبة عهد أبي تمام مباشرة ودون أي مقدمات، واصفاً سيوف عرب اليوم بالخشبية الخالية من حسّ الغضب وروح الثورة. فالسيف الحق من يشهره القوي الشجاع، ودليل ذلك الإشهار الغضب الصادق.

إذن، سبب انتصارات العرب قديماً وعزتهم هو طبيعة اليد القوية التي تحمل السيف ومقدار غضبها وصدقها، وهذا ما نفتقده في سيوف العرب اليوم، التي كانت سبباً في توالي الهزائم، والأيدي الراجفة التي تحمله، والغضب الزائف الذي يملأه الرياء، والصدق الذي يشوبه الكذب، في قوله:

ما أصدق السيف إن لم ينضه الكذب وأكذب السيف إن لم يصدق الغضب

بيض الصفائح أهدي حين تحملها أيد إذا غلبت يعلو بهـــا الغلـــب

تاريخ العرب وماضيهم المجيد وحضارة الغرب المزيفة

يواصل الشاعر قصيدته، يدخلنا في مقارنة ما بين عرب اليوم وحضارة الغرب الكاذبة، وما تقدمهم العلمي إلا امتداد لحضاراتنا القديمة، وبئس هذا التقدم حين يستثمر في الحروب والقتل والدمار واستلاب بلادنا، معتبرين ذلك نصراً لكنه باطل، فالنصر لا يكون إلا بالحق لا بالقوة، ويكون عن فهم لا عن جهل، وعن فهم

عقلاني لا كسب تجاري، فهؤلاء ليسوا إلا أنصاف بشر، وأصحاب حضارة زائفة مشوهة، يقول البردوني:

وَأَقْـبَـحَ الـنَّـصْـرِ.. نَـصْـرُ الأَقْـوِيَـاءِ بِـــلاَ فَـهْمٍ سِوَى فَـهْمِ كَـمْ بَاعُوا وَكَمْ كَسَبُوا

أَدْهَـى مِـنَ الـجَـهْلِ عِـلْـمٌ يَـطْـمَئِنُّ إِلَـى أَنْـصَـافِ نَـاسٍ طَـغَـوا بِـالـعِلْمِ وَاغْـتَـصَبُوا

قَـالُـوا: هُـمُ الـبَـشَرُ الأَرْقَـى وَمَـا أَكَـلُـوا شَـيْـئَـاً.. كَـمَـا أَكَـلُـوا الإِنْـسَـانَ أَوْ شَـرِبُـوا

حال الأمة العربية وغياب المعتصم

يدخل الشاعر في حوار مع أبي تمام، طالباً منه إعفاءه من التعليل وتقديم الأسباب، مع أن البردوني شاعر التعليل ولكن يبدو أن الحالة النفسية السيئة كانت سيدة الموقف، فتعليل ما يجري أو تفسيره أمر مخجل، والأجوبة موجعة، فكيف يمكن أن نجيب عن السؤال: كيف التف الأعداء حول حيفا والنقب؟ وماذا سيكون الجواب إلا خذلان العرب وتهاونهم، فزمن المعتصم ذهب وولى، ولا معتصم اليوم يغيث المظلومين وينصر المستضعفين، فكم من امرأة مكلومة تستغيث "وامعتصماه" ولا معتصم يجيبها، وكم من خائن يعيش بيننا يسرح ويمرح دون رقيب وعقاب، وليس غريباً أن يكون الخائن هو الحاكم نفسه، فلا معتصم يحرق الإفشين، ولا معتصم يغيث المستضعفين، فبغياب هكذا قادة عادت قطعان الغاصبين دون أن يصدها أحد، سوى بعض الغاضبين العاجزين الذين يقولون ما لا يفعلون، الذين استسلموا وصدقوا التنجيم ولهثوا وراء الكذب، في حين أن جيش المعتصم كذب المنجمين وصدق قوة السيوف، والفارق واضح ما بين من يستسلم للواقع، ومن يطوع ذلك الواقع ويصنعه كيفما يشاء، يقول:

مَـــاذَا جَـــرَى.. يَـــا أَبَـــا تَـمَّـامَ تَـسْـأَلُنِي؟ عَـفْـوَاً سَـأَرْوِي.. وَلا تَـسْـأَلْ.. وَمَـا السَّبَبُ

يَـدْمَـــى الـسُّـؤَالُ حَـيَـاءً حِـيـنَ نَـسْـأَلُـه كَيْفَ احْتَفَتْ بِالعِدَى "حَيْفَا" أَوِ "النَّقَبُ"

مَـــنْ ذَا يُـلَـبِّـي؟ أَمَـــا إِصْـــرَارُ مُـعْـتَصِمٍ؟ كَـلاَّ وَأَخْـزَى مِـنَ «الأَفْـشِينَ» مَـا صُلِبُوا

الـيَـوْمَ عَـــادَتْ عُـلُـوجُ «الـــرُّومِ» فَـاتِـحَـةً وَمَـوْطِـنُ الـعَـرَبِ الـمَـسْـلُوبُ وَالـسَّـلَـبُ

ردود فعل باهتة خافتة وتوعّد واهن

يواصل البردوني حواره مع أبي تمام، هازئاً بدلالة (كاف التشبيه في كرجال) منكراً أصلهم، ومشككاً في جنسهم، أو مؤكداً ذكوريتهم دون رجولتهم، ومشيراً إلى سبب توالي الهزائم بعد غياب قادة كالمعتصم، وبعد زوال عروبة كعروبة عهد أبي تمام، فعروبة اليوم لا تفعل شيئاً سوى الغضب الكاذب والاستنكار الزائف، والتسليم للأمر الواقع، وتعليل ذلك بتقديم حجج واهية، بقوله:

مَـــاذَا فَـعَـلْـنَـا؟ غَـضِـبْـنَـا كَـالـرِّجَـالِ وَلَـــمْ نَـصْـدُقْ.. وَقَـدْ صَـدَقَ الـتَّـنْـجِيمُ وَالـكُـتُـبُ

ويستأنف شاعرنا في وصف حال العرب الحالي، منوعاً في الألفاظ، مضيفاً عبارات حداثية (طائرات الميراج)، علّها أضافت جواً كثيفاً للموازنة ما بين فتح فوّهة الحرب على العدو، وفتحها على أبناء الملة نفسها، فما بين حرب الأعداء والحروب الأهلية فارق كبير، ففي حين فتح جيش المعتصم النيران على الروم في عمورية بعدته البدائية وعدده القليل، فإن نار العدو بأسلحته الثقيلة وطائراته الحربية تشتعل فينا.

وأوغل البردوني في سخريته وتهكمه، فليس هناك رجال تحارب، فقد ماتت أو هربت، وربما هذا الموت كان بسبب الخوف أو أثناء الهرب، ولم يكن بسبب الشجاعة والدفاع عن الديار، وإلا لقال استشهدوا.

أما الحكام فلا فعل لهم ولا تبرير لما يحدث، وليس هناك ما يقدمونه سوى الخطابات الفارغة، وتخدير الشعوب، وقرع الطبول، في قوله:

فَـأَطْـفَـأَتْ شُـهُـبُ «الـمِـيـرَاجِ» أَنْـجُـمَـنَـا وَشَـمْـسَـنَـا.. وَتَـحَـدَّت نَـارَهَـا الـحَـطَـبُ

وَقَـــاتَـلَـتْ دُونَـنَـــا الأَبْـــوَاقُ صَـــامِـدَةً أَمَّـــا الـرِّجَـالُ فَـمَـاتُـوا... ثُـمَّ أَوْ هَـرَبُـوا

هؤلاء حكام ينسحبون على الفور حال مواجهة العدو، أو يهيئون له الطريق، فحكامنا يرفلون في ثوب الحكم شكلاً فقط، لأنهم يتلقون الأمر من العدو، فالحاكم الفعلي هو "واشنطن"، لذا يسحقون شعوبهم ولا سيما المبدعين والمثقفين منهم إرضاء للعدو، غير آبهين بدرجة الصلة والقرب، فدرجة القرابة لأبناء الشعب الواحد لم تشفع للمحكومين أمام حكامهم.

ونلاحظ استعمال الشاعر للفظ "القرابة"، ولم يلجأ إلى لفظ أخر كـ"الأخوة" مثلاً، فالأخوة قد تعني أخوة الدم

والنسب أو أخوة في الدين والعروبة، لكنها ليست كذلك في لفظ "القرب" و"القرابة"، إذ تعد أوثق وأقرب صلة، وهذا ما أراده الشاعر حتى يوضح بشاعة وأنانية الحكام الذين ضحوا بشعوبهم وجعلوا من أجسادهم جسراً للعبور، وتحقيق أهدافهم والوصول إلى مآربهم، وتعاونوا مع العدو ومهدوا لهم السبل؛ حفاظاً على مصالحهم الشخصية، ومقاعدهم الرسمية.

واستناداً إلى ما سبق، يجمل بنا الاعتراف ببراعة الشاعر وحذقه في اختيار مفرداته، فقد نجح في توظيف اللغة والرسم بالكلمات.

ولاء حكام العرب لغير العرب

هؤلاء الحكام الذين لا يملكون هوية الانتماء إلى شعوبهم يبدون في ظاهرهم كالمثنى بشموخه وشجاعته، ولكنهم ليسوا إلا حفدة بابك الخرمي، أحد قطاع الطرق في العصر العباسي، فثمّ ازدواجية بشخصية حكام اليوم، فظاهرها شيء وباطنها يحمل شيئاً آخر، فيقول:

حُكَّامُنَا إِنْ تَصَدّوا لِلحِمَى اقْتَحَمُوا ... وَإِنْ تَصَدَّى لَهُ المُسْتَعْمِرُ انْسَحَبُوا

هُمْ يَفْرُشُونَ لِجَيْشِ الغَزْوِ أَعْيُنَهُمْ ... وَيَدَّعُونَ وُثُوباً قَبْلَ أَنْ يَثِبُوا

الحَاكِمُونَ و«وَاشُنْطُنْ» حُكُومَتُهُمْ ... وَاللامِعُونَ .. وَمَا شَعُّوا وَلا غَرَبُوا

القَاتِلُونَ نُبُوغَ الشَّعْبِ تَرْضِيَةً ... لِلْمُعْتَدِينَ وَمَا أَجْدَتْهُمُ القُرَبُ

لَهُمْ شُمُوخُ «المُثَنَّى» ظَاهِراً وَلَهُمْ ... هَوَىً إِلَى «بَابَكِ الخَرْمِيّ» يُنْتَسَبُ

تساؤل الشاعر عن الأصل العربي وشموخه

يواصل الشاعر حواره مع أي تمام، مثيراً سؤالاً موجعاً: هل كانت عزة العرب كذبة أم أنهم نسوها ونسوا أصولهم، فهل ينسى ما كان نفيساً أصله؟ بهذا السؤال يستنكر البردوني وضع العرب وما آلوا إليه، وعروبة اليوم لا تحمل من اسمها غير الحروف، بل إنها ضلت طريقها إلى تلك الحروف، في قوله:

مَاذَا تَرَى يَا «أَبَا تَمَّامَ» هَلْ كَذَبَتْ ... أَحْسَابُنَا؟ أَوْ تَنَاسَى عِرْقَهُ الذَّهَبُ؟

عُـرُوبَـةُ الـيَـوَمِ أُخْـــرَى لا يَـنِـمُّ عَـلَـى وُجُـودِهَـا اسْـــمٌ وَلا لَـــوْنٌ وَلا لَـقَـبُ

يوازن الشاعر بين عدد العرب القليل الذين اتقدوا كشعلة ملتهبة في فتح عمورية متجاهلين كلام المنجمين الذين طلبوا منهم انتظار نضوج العناقيد، وبين عرب اليوم المتفرجين من بعيد بعددهم المخيف الذي يرهب أكبر عدو، بأسلوب تهكمي؛ إذ يقول إن كروم العنب نضحت وتم قطافها وعصرها، دلالة على طول المدة الزمنية التي وقف فيها العرب مكتوفي الأيدي. كما نلاحظ أن البردوني اختار لفظة "الزيتون" مقابل "التين" عند أبي تمام؛ لأن الزيتون يحتاج إلى مدة زمنية حتى تنضج أطول من تلك التي يحتاجها التين، وهنا تكمن قمة السخرية والتهكم من واقع الحال، ولعلّ شاعرنا يقصد نكسة حزيران، والأسباب الكامنة وراءها، وعدم هبّة العرب لنصرة فلسطين، والدول العربية المنكوبة.

فلو كانت النية أن يهبوا لهبوا منذ زمن، ولكنهم ينتظرون معجزة سماوية مرة، ويتحججون بالحلول السلمية مرات، ويعيب البردوني هذا التقاعس الذي لا مبرر له، فكثرة عددهم منقوصة؛ لأن جهوزيتهم معدومة، فلو هبوا لنصرة فلسطين مثلاً لنصروها؛ لكثرة عددهم.

وأشار إلى أن أذناب العدو وأعوانهم ما إن بقوا ماسكين زمام القيادة، فسيطفئون نار نخوة كبار القوم، وإذا باتت النسور تلهث كالذئاب فعلى العرب والدنيا السلام، ولتقم المآتم والجنائز على نخوة العرب، يقول:

تِـسْـعُونَ أَلْـفَـاً «لِـعَمُّـورِيَّـةَ» اتَّـقَـدُوا وَلِـلْـمُـنَـجِّمِ قَـالُـوا: إِنَّـنَـا الـشُّـهُـبُ

قِـيلَ: انْـتِـظَارَ قِـطَـافِ الـكَـرْمِ مَـا انْـتَـظَرُوا نُـضْـجَ الـعَـنَـاقِـيدِ لَـكِـنْ قَـبْـلَـهَـا الْـتَـهَـبُوا

وَالـيَـوْمَ تِـسْـعُونَ مِـلـيـونَـاً وَمَـا بَـلَـغُوا نُـضْـجَـاً وَقَـدْ عُـصِـرَ الـزَّيْـتُـونُ وَالـعِـنَـبُ

تَـنْـسَـى الـرُّؤُوسُ الـعَـوَالِـي نَـارَ نَـخْـوَتِـهَا إِذَا امْـتَـطَـاهَـا إِلَـــى أَسْـيَـادِهِ الـذَّنَـبُ

القسم الثاني / الهمّ اليمنيّ الخاص

ألقى الشاعر قصيدته في العراق، فتحدث بداية عن الهم العربي الجمعي العام، فطبيعة المكان والمناسبة والضمير العربي والوجدان المتيقظ يتطلب هذا. وبما أنه يمني المولد والنشأة والهوى، فمن الطبيعي أيضاً أنه

يخص يمنه بعدما قدّم واجبه اتجاه العرب بعامة، وهكذا نصل إلى القسم الثاني في النص، القسم الأعمق، النص الذي بدأه محاوراً أبا تمام باسمه الأصلي "حبيب" بعيداً عن الألقاب من باب التقرب والتحبب.

الحلم زاد الشاعر وقود القصيدة

أخذ شاعرنا يحدث أبا تمام عن صنعاء وحلمها في انبعاث جديد وفجر جديد، ولكنها ماتت كما مات "وضاح اليمن" دون ثمن ودون مراسم ودون جنازة، وحتى دون وداع، لم يدر به أحد، ولكن رغم قتامة هذا المشهد والواقع المأساوي، ظل كلاهما، صنعاء والشاعر، متشبثين بهذا الحلم.

ورغم شح الإمكانات، والقبضة المحكمة على صنعاء، فإنها مازالت تحمل عبق تاريخ وأصالة العرب العاربة في قبيلتين موغلتين بالعروبة الأصيلة: قحطان وكرب. فيقول:

مَــاذَا أُحَــدِّثُ عَــنْ صَنْـعَـاءَ يَــا أَبَـتِـي؟   مَلِـيحَـةٌ عَـاشِقَـاهَـا: الـسِّلُّ وَالـجَـرَبُ

مَــاتَــتْ بِـصُـنْـدُوقِ «وَضَّــاحٍ» بِــلاَ ثَـمَـنٍ   وَلَـمْ يَـمُتْ فِـي حَـشَاهَا العِشْقُ وَالطَّرَبُ

كَـانَـتْ تُـرَاقِبُ صُـبْحَ الـبَعْثِ فَـانْبَعَثَتْ   فِــي الـحُـلْمِ ثُـمَّ ارْتَـمَتْ تَـغْفُو وَتَـرْتَقِبُ

تبدد الحلم وضياع العمر وهموم الشاعر

يخبر البردوني أبا تمام عن حاله متبرماً، فحاله من حال بلاده ليست جيدة، كما يحسده على البلاد في عهده والتي كانت كظهر الثابت للناقة السريعة، وهنا إشارة إلى أن البلاد العربية لها حدود، حدود تعني الاستقرار، أما بلاد الشاعر اليوم فلا حدود تحدها، وكأنه يشير إلى حجم الضياع والاغتراب الذي نعيشه الآن، وربما يشير إلى أن العدو يسرح ويمرح في بلادنا ويتحكم بنا ونحن الغرباء فيها.

كما يشير إلى ترحال العرب الدائم بلا قيود وبلا حواجز، أما الآن حتى هذا الترحال بات محرماً، فالغربة سيدة الموقف، لا سيما الغربة الداخلية غربة الروح بلا سفر، غربة الروح بلا هوية، في قوله:

"حَـبِيبُ" تَـسْأَلُ عَنْ حَـالِي وَكَـيْفَ أَنَـا؟   شُـبَّـابَـةٌ فِـــي شِـفَــاهِ الـرِّيـحِ تَـنْـتَـحِبُ

كَــانَـتْ بِــلاَدُكَ "رِحْــلاً"، ظَـهْـرَ "نَـاجِـيَةٍ"   أَمَّـــا بِــــلاَدِي فَــــلاَ ظَـــهْـــرٌ وَلاَ غَــبَــبُ

مأساة الشاعر

وصل التبرم ذروته عند البردوني معداً مولده مأساة، وحياته عدم، وموته هماً، وأنه يحملهم على كتفه كحمل ثقيل، فأي وجع هذا الذي جعله يشيخ صغيراً، وأي ألم هذا الذي جعله يؤمن بعدمية الوجود.

كما أشار إلى قضية تسليم الراية، فشعراء اليوم امتداد لشعراء الماضي، تسلموا منهم الراية وأكملوا الطريق، ولكنه لم يبرح إلا أن يعقد موازنة لطيفة بينه وبين أبي تمام بكونهما شاعرين بعيداً عن الهموم السياسية، فكلاهما شاب قبل الأربعين، ولكن السبب مختلف؛ فالبردوني يحمل همين، الهم العربي وحال البلاد العربية، واليمني خصوصاً، أما أبو تمام فقد هرم لاتخاذ الشعر وسيلته للتكسب، فقضى العمر متنقلاً بين الملوك والولاة والأمراء. في قوله:

قَـبْـرِي وَمَـأْسَـاةُ مِـيـلَادِي عَـلَـى كَـتِـفِي	وَحَـوْلِـيَ الـعَـدَمُ الـمَـنْـفُـوخُ وَالـصَّـخَـبُ
"حَـبِـيـبُ" هَـذَا صَـدَاكَ الـيَـوْمَ أَنْـشُـدُهُ	لَـكِـنْ لِـمَـاذَا تَـرَى وَجْـهِـي وَتَـكْـتَـئِـبُ؟
وَأَنْـتَ مَـنْ شِـبْـتَ قَـبْـلَ الأَرْبَـعِـينَ عَـلَـى	نَـارِ «الـحَـمَـاسَـةَ» تَـجْـلُـوهَـا وَتَـنْـتَـحِـبُ
وَتَـجْـتَـدِي كُـلَّ لِـصٍّ مُـتْـرَفٍ هِـبَـةً	وَأَنْـتَ تُـعْـطِـيهِ شِـعْـرَاً فَـوْقَ مَـا يَـهِـبُ
شَـرَّقْـتَ غَـرَّبْـتَ مِـنْ "وَالٍ" إِلَـى "مَـلِـكٍ"	يَـحُـثُّـكَ الـفَـقْـرُ... أَوْ يَـقْـتَـادُكَ الـطَّـلَـبُ

بكاء البردوني، وتساؤلات أبي تمام

يقول البردوني إنه ما زال هناك بقية من أسئلة وتساؤلات لدى أبي تمام حول وضع العرب المحزن، وحالهم المبكي، وثمة أسباب وأجوبة كثيرة لدى البردوني ولكنه يخجل من البوح بها، مكتفياً بوصف مشهد إراقة الدماء وكيف أن العدو يريق دماء العرب، وكيف يستغل العرب ذلك في إراقتهم دماء بعضهم بعضاً، في صورة تقشعر لها الأبدان؛ ففي حين يريق العدو دماءنا، نحتسي دماء بعضنا مستغلين الموقف أسوأ استغلاك، ومنتهكين الحدث أيما انتهاك، ففي الوقت الذي يدافع فيه الشرفاء عن شرف العرب وتراق دماؤهم، ينشغل أصحاب المناصب ويستغلون ذلك في مصالحهم الخاصة تاركين الشعب يُقتل ويُذبح.

استطاع البردوني تصوير الواقع في أدق صوره، فرغم بشاعة الصورة السابقة، وقتامة المشهد فإنه نجح في توظيفها، وبرع في وصفها في اختزال مشهد دموي في الحروب ضد الشعوب. فيقول:

"حَبِيبُ" مَا زَالَ فِي عَيْنَيْكَ أَسْئِلَةً تَبْدُو... وَتَنْسَى حِكَايَاهَا فَتَنْتَقِبُ

يَكْفِيكَ أَنَّ عِدَانَا أَهْدَرُوا دَمَنَا وَنَحْنُ مِنْ دَمِنَا نَحْسُو وَنَحْتَلِبُ

تجدد الأمل رغم قسوة الواقع

يفتح لنا البردوني، متفقاً مع أبي تمام نافذة أمل، وبارقة فتح، وبهجة نصر، فالعدو الذي يحرمنا من الحرية ويحجب عنا رؤيتها، ومهما استبد وطالت قوته وعلا ظلمه، لا بد أن يأتي ذلك اليوم الذي تتمرد فيه القوة وتنتصر فيه الثورة.

فالشعوب خلقت حرة بالفطرة، فمهما صمتت لا بد أن تثور في صورة جميلة رسمها البردوني؛ بأن غضب الشعوب وتمرده سيكون بمثابة الرعود التي ستملأ السحاب، منتزعين الفجر من بطن الدجى، مجتثين النور من فم الغسق.

وربما قفل البردوني قصيدته ببريق الأمل هذا كي يخفف من وطأة غضبه، وكي يخفف من نيران سياطه التي جلد بها الذات العربية.

ولكن هل أراد البردوني أن يصطنع الأمل رفقاً بالذات؟ أم أنه أمل حقيقي هو مؤمن به؟ فمن المؤكد أن امتلاء السماء بالسحاب لدرجة الحجب عند أبي تمام، علة لهطول المطر ورمز للفرج وسبب للنجاة والأمل، أما البردوني فقد يكون قصد في حجب السماء سبباً آخر غير الغيوم، فسؤاله عن البارق (ألا ترى يا أبا تمام بارقنا؟) ربما جاء من قبيل السخرية! مع عدم استبعاد ما أراده أبو تمام. يقول البردوني:

سَحَائِبُ الغَزْوِ تَشْوِينَا وَتَحْجِبُنَا يَوْمَاً سَتَحْبَلُ مِنْ إِرْعَادِنَا السُّحُبُ؟

أَلاَ تَرَى يَا أَبَا تَمَّامَ بَارِقَنَا؟ إِنَّ السَّمَاءَ تُرَجَّى حِينَ تُحْتَجَبُ

اللغة عند البردوني

حافظ البردوني على الشكل الشعري القديم، ولكنه جدد في المعاني والألفاظ والمضامين، وبرع في استحضار الموروث والشخصيات التاريخية والأدبية والأسطورية. له معجمه الخاص؛ لا اللغوي فحسب وإنما ذهب إلى معجم الطبيعة والعادات والتقاليد والأساطير والخرافات، واستطاع بأذنه الموسيقية أن ينتزع مفرداته ليخرج إلينا بسيل من الأبيات المتدفقة.

ومن التقنيات التي يلجأ إليها في شعره، غير تقنية السرد، تقنية التناص الحاضرة بقوة منذ بداية القصيدة، بدءاً من "العنوان" حتى نهايتها، وتنوعت ما بين الأدبي والتاريخي والأسطوري. ومن التناص الوارد في القصيدة:

أولاً- التناص الأدبي:

سيطر على القصيدة، من العنوان والاستهلال مروراً بأبياتها وانتهاء بالقفلة، تناص أدبي تجلى فيها من خلال استحضاره شخصية أبي تمام؛ فالقصيدة حضنت تلك الشخصية كشاعر، وحضت أيضاً قصيدته "فتح عمورية".

بدأ التناص بالمفارقة (أبو تمام وعروبة اليوم)، ثم المعارضة في معظم أبيات القصيدة. ولم يكتف البردوني باستحضار شخصية أبي تمام، بل حاورها واشتكى إليها، قاصداً توضيح المفارقة بين زمنه وزمن أبي تمام، وما بين الحاضر والماضي، مركزاً على ثنائية الوطن والاغتراب وثنائية النصر والهزيمة.

غار البردوني على ألفاظ أبي تمام واستطاع أن يغيّر فيها ويقلب معانيها، ويعكس اتجاه الطيار وحركة القصيد. والأمثلة على ذلك كثيرة ذكرت على مدار البحث.

وهذا ليس بغريب عما لا تعجزه المفردات؛ فينتقي كل جزل وفخم ويقصي كل وحشي وحوشي، ويركبها في سياق عقلي متخيل، ويضفي عليها بعداً نفسياً، ليأتي إلينا بمشهد درامي متكامل، ولا عجب؛ فهو من رواد الشعر السردي المصحوب بالأحداث والزمان والمكان والأبطال والحوار، من خلال نافذته الإبصارية الكبرى.

ثانياً، التناص التاريخي:

تزخر القصيدة بالتناص التاريخي، ففي غير بيت من أبيات القصيدة استحضار لشخصية المعتصم وقصة نصرته للمرأة التي استغاثت به فجهز جيشاً وثأر لها، ونرى في البيت نفسه تناصاً تاريخياً مع قصة "الإفشين" الذي خان المعتصم وأمر بصلبه وحرقه، في قوله:

مَـنْ ذَا يُـلَـبِّـي؟ أَمَـا إِصْـرَارُ مُـعْـتَصِمٍ؟ كَـلّا وَأَخْـزَى مِـنَ «الأَفْشِينَ» مَـا صُلِبُوا

ومن التناص التاريخي أيضاً واقعة فتح عمورية والنصر المؤزر الذي حققه العرب بقيادة المعتصم، الذي كذّب قول المنجمين وصدق غضبه وقوة سيفه، فيقول:

تِـسْـعُونَ أَلْـفَـاً «لِـعَمُّورِيَّـةَ» اتَّـقَـدُوا وَلِـلْـمُـنَـجِّمِ قَـالُـوا: إِنَّـنَـا الـشُّـهُـبُ

ومن التناص التاريخي الوارد في القصيدة والذي أفاد منه البردوني شخصية المثنى بن حارثة الشيباني أحد القادة الذين شاركوا في حروب فارس، وشخصية بابك الخرمي الذي غار على العباسيين فترة ليست بقليلة حتى قتل على يد الإفشين حيدر بن كاوس.

ثم نرى البردوني يستدعي شخصيتين متناقضتين؛ الأولى شخصية شجاعة مقدامة تمثل حكام العرب قديماً خير تمثيل، والأخرى نقيضة للأولى، فهي شخصية خائنة غادرة، تمثل حكام اليوم الذين حاولوا الاختباء تحت ظلال الشخصية الأولى، ولكن حقيقتهم مكشوفة. في قوله:

لَـهُـمْ شُـمُـوخُ «الـمُـثَنَّى» ظَـاهِـرَاً وَلَـهُـمْ هَـوَىً إِلَـى «بَـابَـك الـخَـرْمِـيّ» يُـنْـتَسَبُ

التناص الأسطوري

من التناص الأسطوري الذي استحضره البردوني في القصيدة قصة وضاح اليمن، وعلاقته مع أم البنين، زوجة الخليفة الوليد بن عبد الملك، وعشقه لها، وزياراته لبيتها، وبلوغ ذلك زوجها الخليفة، فأخفته في صندوق، وحين شك أنه في ذلك أمر بدفنه، فالصندوق هو نفسه القبر الذي دفنت فيه صنعاء، وهذا ما قصده الشاعر. فيقول:

مَـاتَـتْ بِـصُـنْـدُوقِ «وَضَّـاحٍ» بِـلاَ ثَـمَـنٍ وَلَـمْ يَـمُتْ فِـي حَـشَـاهَا العِشْقُ وَالطَّرَبُ

ولكن يجدر بنا التنبيه إلى أن قصة وضاح اليمن تجمع بين التاريخ كونه شخصية تاريخية، والأسطوري في قصة موته.

ونرى البردوني يلجأ إلى الأساطير الإغريقية ولا سيما أسطورة طائر العنقاء أو طائر الفينيق، وما تحمله من

دلالات البعث والخصب والتجدد والشباب.

وربما هنا ينتظر الشاعر بعثاً جديداً يعيد لصنعاء الحياة التي طالما حلمت بها، وتغيير الواقع الحالي إلى الأفضل، وربما يحلم بإعادة تاريخ المجد، وعزة العرب. فيقول:

كَـانَـتْ تُـرَاقِبُ صُـبْحَ الـبَـعْـثِ فَـانْـبَـعَثَتْ فِــي الـحُـلْمِ ثُــمَّ ارْتَـمَـتْ تَـغْـفُو وَتَـرْتَـقِبُ

الخاتمة

نستطيع القول إن البردوني –رحمه الله– كان يملك حساً تنبّؤياً ونظرة مستقبلية، كما يمكننا القول إنه استطاع الحفاظ على كيان القصيدة العربية التقليدية، مجدداً في المضامين والألفاظ الحداثية.

تعايش مع القيود ورفض الاستسلام وحلم بالتحرر والانعتاق، حارب الحزبية وتجرد من الانتماءات وثار على الجمهورية والإمامية، عارض الظلم ودافع عن المهمشين والمستضعفين، اختار البساطة ولم يقترب من أصحاب السلطة والنفوذ، وحول وجعه الفردي إلى هم جمعي وحالة فنية فريدة. وهو صاحب فلسفة إنسانية وثورة داخلية تمثلت بحبه للإنسان وكرهه للشر الذي ينتج عن الإنسان، فمعيار الحب والكره أو مقياس القبح والجمال عنده ناتج عن حكمة؛ فلا يكره الشيء لقبحه وإنما لقبح وصفه، ولا يحبه لجماله وإنما لجمال وصفه.

استطاع من خلال قصيدته أن يبرز حال الأمة العربية اليوم، وما تعانيه من ضعف وهوان من خلال الموازنة، واستحضار شخصيات تاريخية وأسطورية وأدبية، والمقارنة ما بينها وبين عرب اليوم، واستطاع تذليل تلك المفارقة الجلية والواضحة، وختم بأمل متجدد للتخفيف من وطأة الصوت الذي يجلد به ذاته والعرب.

وحقاً، إن القصيدة تزخر بالدلالات والإحالات والاحتمالات من خلال قيامها على مبدأ الموازنة؛ لتوضيح المفارقة بين زمنين، الأول إيجابي والآخر سلبي، فقد جاءت المفارقة لتوضيح ذلك، وقد حاولت جاهدة توضيح ذلك من خلال هذه المباحثة، ولكن في الحقيقة إن القصيدة تحتمل أكثر من ذلك، وتتسع للمزيد من القراءات والتأويلات، فزواياها متعددة وتحتمل ذلك.

والمتأمل في القصيدة يرى أن البردوني يمكن أن يكون قد بالغ في جلد الذات العربية، مع أنه استقاها من واقع الحال، ولكن ما يمكن أن يحسب للشاعر القفلة، فقفلة القصيدة جاءت زاخرة بالأمل حتى لو لم ينبع ذلك من قلبه، وحتى لو كان هذا الأمل متصنعا.

ويمكن القول إن البردوني كان على نقيض مع قصيدة أبي تمام من حيث المضمون، وعلى ائتلاف في قفلتها، أما الاختلاف فربما يرجع إلى اختلاف في نفسيتي الشاعرين، ونظرة كل منها للحياة.

والقصيدة كانت شكلا من أشكال المعارضات؛ فالبحر واحد وكذلك حرف الروي، إلا المضمون اختلف، ومن الظلم عدّ القصيدة من باب المعارضات.

المصادر والمراجع

- ابن علي، هشام علي، البردوني واليمن وطن يؤلفه الكلام، مركز نشوان الميري للدراسات والإعلام
- سعيد، سعد جرجيس، فاعلية الإيقاع السمعي في شعر عبد الله البردوني، جامعة تكريت، ص131، 2020
- حمادي، رياض: عبد الله البردوني "معري اليمن" ما يزال يزرع الأمل، مجلة حفريات، 2020
- يحيى محمد حميد الدين محمد المتوكل، أمام اليمن (1948-1904)، ومؤسس المملكة اليمنية المتوكلية
- مجلة الخليج الجديد، الحاضر في التاريخ.. قصة الإمامة الزيدية في اليمن، 2014
- ابن الإمام يحيى، وثاني ملوك المملكة المتوكلية اليمنية
- يحيى، آدم: عبد الله البردوني شاعر كفيف أضاء الثورة لليمنيين، صحيفة الاستقلال، 2020
- ديوانه، 363
- المنصوري، أحمد، وآخرون: عبد الله البردوني، الشاعر البصير، سلسلة دراسات وأبحاث، ط1، مؤسسة سلطان بن علي العويس الثقافية، الشارقة، 2019، ص 152+151
- ديوانه: ص 595
- ديوانه: 595
- ديوانه: ص595+596
- ديوانه: ص 596
- المثنى بن حارثة الشيباني اليماني، أحد أبطال القادسية، وله دور عظيم في إسقاط دولة كسرى
- زعيم فارسي، قائد فرقة الخرمية، ظهر في عهد الخليفة المأمون العباسي، وغار على الدولة العباسية، واستمر في عدائه لها قرابة العشرين عاما، حتى تم القضاء عليه في عهد المعتصم من قبل الإفشين.
- ديوانه، ص596+597
- ديوانه، ص 597
- ديوانه، ص597
- ديوانه، ص 597+598
- ديوانه، ص598+599
- ديوانه: 599
- ديوانه، ص600
- ديوانه، ص600
- ديوانه، ص 596
- ديوانه، ص 597
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، ج9، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، دار المعارف، مصر، 1967، ص11، وينظر أيضا: مطر،

ينظر: محمد نعمة: التحالفات والأمم في حركة بابك الخرمي، كلية الإمام الكاظم للعلوم الإسلامية، ص 17، وينظر أيضا: العزيز، حسين قاسم: البابكية، رسالة دكتوراه، دار الفارابي، بيروت، مكتبة النهضة، بغداد، 1966، ص 198

- الجعثين، عبد الله: أسطورة وضاح اليمن، جريدة الرياض، 2012
- الديوان، ص 598
- محمد، عبد الرحمن: أسطورة طائر العنقاء، مجلة سطور، 2017
- ديوانه، ص600